دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم
ـ (دمدم) نموذجا ـ

د. عبد العزيز الخطيب(*)

(*) أستاذ التعليم العالي بدار الحديث الحسنية ـ الرباط، المغرب.

مقدمة:

كان مما دعاني إلى البحث في دلالات هذه الكلمة أمران:

الأول: إيماني بأهمية البحث في دلالات ألفاظ القرآن الكريم وأسرار كلماته؛ في أنفس الكلمات ثم في تراكيبها، واستنطاق ما أمكن استنطاقه من مؤشرات صوتية وصرفية ونحوية، وتركيبية نظمية بلاغية، وسياقية دلالية؛ ذلك أن البحث فيها يعتبر من جملة بحوث العلوم اللفظية التي هي «أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن»[1]، وصيغ ألفاظ القرآن الكريم جملة «هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حُذَّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايِب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[2]، وكلام القرآن الكريم معدنُ كلّ كلام وجوهرُه، تسمو حروفه كما تسمو كلماته، وتسمو كلماته كما تسمو جمله وآياته، وتسمو هاتان كما تسمو فِقرُه وسوره، بل يسمو كله على كلام الإنس والجن، فمن أيِّ جهة أتته دراسةُ دارسٍ وجدتْ مجالا خصبا، ومرتعا عذبا؛ لا إرهاق فيه لخاطر، ولا إعنات لرويِّة.

الثاني: أنها تشكل مع أخواتها (حصحص وزلزل...) بناء رباعيا مشتركا في الصوت والصيغة ودلالة الزيادة التي تلحق كلا منها، وقد ذكروا أن اختلاف المباني دليل على اختلاف المعاني، وهو ما نراه عند الزركشي وهو يتحدث في القسم الخامس عشر الذي

(1) مفردات الراغب، (ص: 54).

(2) نفسه، (ص: 54-55).

عنونه بـ «الزيادة في بنية الكلمة»، فقد كان واعياً بهذا القانون اللغوي؛ حيث كان مقتنعاً بأنه يسري أكثر على كلام القرآن؛ لأن الأمثلة الواردة عنده كانت كلها قرآنية، وليس ذلك غريبا فموضوع كتابه «البرهان» هو في علوم القرآن، يقول: «واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه؛ فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني؛ فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة»[1]، ومن الأمثلة التي استقاها (كبكبوا)[2].

ومن ثمّ كان مدار البحث في مادة (دمدم) على محورين:

الأول: عرض آراء العلماء في صيغة (فعلل) المضاعف، لأن الكلمة المدروسة تنضوي تحت مبحث هذا الرباعي، ومحل عرضه وبيانه مقدمة هذا البحث؛ لأنه كالأصل لما يليه ومطية له.

الثاني: (دمدم) في اللغة وفي القرآن الكريم؛ ومحل عرضه وبيانه وكشف أسراره هو ما يلي هذه المقدمة، فأقول وبالله العون وعليه سبحانه التوكل.

---

(1) البرهان للزركشي، (3 / 34-35).

(2) في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُۥنَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 94].

أولا: عرض آراء العلماء في صيغة (فعلل) المضاعف

عندما يُعرِّف الصرفيّون الرباعي المضاعف «بالفعل الذي فاؤه ولامه الأولى من جنس واحد، وعينه ولامه الثانية من جنس واحد أيضا، نحو: زلزل ووسوس»[1]، فإنه يتبادر إلى الذهن سؤال: كيف يكون المعنى مع هذا التكرار الصوتي لهذه المفردات وأمثالها؟ هذا مع العلم بأن الزركشي ينصّ على أن من فوائد علم التصريف: «حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى واحد»[2].

في بناء (فعلل) رأيان مشهوران: رأي البصريين ورأي الكوفيين:

- أما رأي البصريين[3] فمفاده أن جميع حروف (فعلل) أصول، ولا فرق عندهم بين ما يُفهِم المعنى عند سقوط ثالثه وما لا يُفهم، وقد عبّر عن موقفهم ابن جني قائلاً: «فأما إذا كان معك أصلان ومعهما حرفان مِثلان فعلى أضرب: منها أن يكون هناك تكرير على تساوي حال الحرفين، فإذا كانا كذلك كانت الكلمة كلها أصولاً، وذلك نحو قلقلَ وصعصع وقرقر، فالكلمة إذاً لذلك رباعية»[4].

- وأما رأي الكوفيين فالصالح للسقوط بدل من تضعيف العين، فأصل (لـملم) عندهم: (لـمم)، فاستثقلوا توالي ثلاثة أمثال متواليات، فأُبدل من أحدها حرف يُماثل الفاء.

---

(1) الفعل زمانه وأبنيته (ص: 195).

(2) البرهان للزركشي، (1/ 297).

(3) يُستثنى من ذلك أبو إسحق الزجّاج (ت311هـ) وأبو بكر ابن السرّاج (ت316هـ) فإنهما بصريان، ومع ذلك نافحا الكوفة في مذهبهم. المقاصد الشافية.. (8/ 343 و347).

(4) الخصائص (2/ 57)، اكتفيت بإيراد هذا الضرب؛ لأنه مما يتكرر فيه الحرف الثالث مع الأول، والرابع مع الثاني، وليس كذلك التكرار في الأضرب الباقية عنده.

فوزن (لَـمْلَم) مثلا عند البصريين (فعلل)، ومذهب الكوفيين أن الأصل (لَـمّم) بالتّضعيف، فأبدل من ثاني المضعّفين لاما؛ كراهة التضعيف، فوزنه عندهم في الأصل (فَعّل).

وقد أوضح الشاطبي ميل ابن مالك إلى موقف الكوفيين، خلال بيانه أن الحروف الساقطة على ثلاثة أقسام، منها أن يكون من المضاعف نحو: صَلَّ وصَلْصَل وعجّ وعجْعج وزلز وزَلزل، فيمكن أن يقال فيه بمذهب من رأى أنّ الساقطَ من المضاعفين زائدٌ، ويدل عليه قاعدة الناظم في الزيادة، وهي سقوط الحرف في بعض تصاريف الكلمة، وهذا مذهب الكوفيين، ومذهب البصريين خلاف ذلك؛ إذ يرون أن لا زيادة أصلا[1].

فالكلمة إن تضمّنت حرفاً ـ أو أكثر ـ ولزِمها في كل تصاريفها، بحيث لا ينفكّ عنها، كان ذلك حرفاً أصلياً في بنائها. وإذا تضَمّنته ولم يَلزمْها، بل يحضرها في بعض تصاريفها ويفارقها في بعض التصاريف كان ذلك حرفا زائدا على الكلمة بعد أن استقلت بدلالتها على معناها.

وتأتي الزيادة في العربية مقابل التجرّد، وهما معا يؤديان إلى الاختلاف، واختلاف المباني يومئ إلى اختلاف المعاني، وإن البحث في اختلاف المباني ـ بالتجرّد أو بالزيادة ـ في القرآن الكريم لمن جليل الأبحاث وأشدها صلة بالإعجاز اللغوي، ومن ثمّ كان علم الصرف عموما من احتياجات المفسّر التي لا غنى له عنها، وهو إحدى الركائز الأساسية للتفسير اللغوي والإيقاعي، وقد أكد هذا عدد كبير من القدامى أمثال الزركشي الذي يقول: «وفائدة التصريف: حصول المعاني المختلفة المتشعبة عن معنى

---

(1) المقاصد الشافية.. (8 / 315ـ316)، وينظر الكتاب (4/ 327).

واحد، فالعلم به أهم من معرفة النحو في تعرُّف اللغة؛ لأن التّصريف نظر في ذات الكلمة، والنحو نظر في عوارضها وهو من العلوم التي يحتاج إليها المفسر»[1].

وإذا كان اختلاف المباني إما أن يكون باختلاف الحركات[2]، أو أن يكون بالتجرّد[3]، أو أن يكون بالزيادة، والزيادة إما أن تكون بحروف «سألتمونيها»[4]، أو تكون بالتضعيف، وإلا فإن الحرف من الأصول، فهذه ثلاثة أنواع استخرجها العلماء من كلام العرب بالاستقراء، «وهي أنّ الزوائد من الحروف إما أن تكون زوائد بالتّضعيف... وإما أن تكون زوائدَ لغير التضعيف، وقد استقرأ العلماء الزيادة على هذا النحو فوجدوها لا تخرج عن حروف «سألتمونيها»»[5].

ونترك - الآن - البحث في اختلاف المباني بالحركات، وكذا الاختلاف بالتجرّد لا نلتفت إليهما، إلى اختلافها بالزيادة، كما نترك البحث في الزيادة بحروف «سألتمونيها» إلى البحث في الزيادة من جنس الحروف الأصول، وهو ما يدخل في جنس المكرر أو

---

(1) البرهان للزركشي، (1 / 297).

(2) مثل: الجِدّ بمعنى الاجتهاد في الأمر، والجُد هو البئر القديمة. مثلثات قطرب، (ص: 49)، واللَّبان (الصدر) واللِّبان (الرّضاع) واللُّبان (شجر الكندر). انظر الكتاب نفسه، (ص: 53).

(3) مثل: (تسطع) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَاوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [سورة الكهف، من الآية: 82]، وأصله استطاع بمعنى استفعل ثم حذف تاء الافتعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء، والمخالفة بينه وبين قوله: ﴿سَانَبِّئُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ «للتّفنُّن تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتُدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفف لأن التخفيف أولى به لأنه إذا كرر (تستطع) يحصل من تكريره ثقل». التحرير والتنوير (16/ 15).

(4) هناك حروف تسقط من بعض الكلمات في بعض الاستعمالات مثل: سَبِطٍ وسِبطر، ودَمِثٍ ودِمَثْرٍ، ورِخْوٍ ورِخْوَد «وما أشبه ذلك فهذا لا سبيل إلى دعوى الزيادة فيه، وإنّما يُدّعى فيه أنه لفظٌ مرادف من مادّة أخرى». المقاصد الشافية.. (8/ 315).

(5) المقاصد الشافية.. (8 / 315).

المضاعف، مع مراعاة ـ متى أمكننا ذلك ـ دقائق الفروق الدلالية الجارية بين اختلاف الحركات في هذا المضاعف.

وليس هذا المتروك بأقل خطرا ولا بأقل عظمة من هذا المذكور، بل إنهما سيّان في ذلك، وإنّ النظم والسياق يطلبان أحدَهما في موضع لا يصلح فيه طلب الآخر، وبالعكس.

ثمّ لاشك أنّ أصل بنية الكلمة في العربية من الثلاثي؛ إذ هو السهل المتداول والكثير المتناول والخفيف المستساغ، وقد وظف القرآن الكريم كل أوزان الثلاثي العشرة «وهي موجودة في القرآن وتختلف كثرةً وقلّة»[1]، بينما قلّت صيغ الرباعي والخماسي لثقلها، يقول أبو الفتح: «ذوات الأربعة مستثقلة غير متمكنة تمكن الثلاثي... ثم لاشك فيما بعد في ثقل الخماسي وقوة الكلفة به»[2].

والقرآن الكريم عندما يوظف هذه الصيغ غير الثلاثية فإنه يوظفها بحسب ما يتطلبه كل موقف؛ فتكون الكلمة الموظفة في أي موضع من مواضع القرآن متخيرة؛ لا يدقق المعنى ولا يقرّبه، ولا يصوّره ولا يجليه لفظٌ آخر غيرُه وإن ظنّه البعضُ مرادفًا له، وقد عبَّر عيسى با طاهر عن هذا المعنى قائلا: «ولكن بعض الألفاظ في القرآن تستقل بنفسها في تصوير المعنى، وهذا يعد من الخصائص الجليلة التي انفرد بها الأسلوب القرآني حتى سما إلى ذروة البلاغة والإعجاز»[3].

وإذا قرر القدامى من أمثال ابن جني في قوله السابق أن الرباعي وغيره ثقيل؛ فإن

(1) نظرات في أبنية القرآن الكريم (ص: 14).

(2) الخصائص (1/ 61).

(3) طرق العرض في القرآن.. (ص: 62).

هذا الثقل قد يحصل على المستوى الصرفي والصوتي، أي عند النطق بالكلمة؛ (وذلك - مثلا - من جهة طول الكلمة أو من جهة تركيب حروفها، أو من جهة حركاتها...)، وقد يحصل على المستوى الدلالي، أي عند تبيان حاصل المعنى من اللفظ، وقد يحصل باجتماع أكثر من مستوى من هذه المستويات.

لاشك أن التعديل الذي تسمح به العربية للتخفيف من ثقل بعض الكلمات قد وضع له القدامى قوانين وضوابط بعد استقرائهم للهجات العربية وكلام العرب الفصحاء، وتطور ألفاظهم، وقد سبق الذكر أن اختلاف النحويين في صيغة الرباعي المضاعف كانت بين اعتباره من مزيد الثلاثي وبين اعتباره بناء مرتجلا وكل حروفه أصول، «فإن فُهم المعنى بسقوط أحدهما فهو زائد نحو: كفكفت الشيء بمعنى كففته، كان في الأصل كفَّفت بثلاث فاءات، الأولى عين، والثانية زائدة، والثالثة لام، فاستثقل توالي الأمثال فَرُدَّ إلى باب (سمْسَم) بزيادة مثل الفاء بدل مثل العين تخفيفا، ... وكلا التخفيفين مطرد في أقيسة الكوفيين، والبصريون فيهما مع السماع، ويرون أنّ (كفكف) وأمثاله بناء مرتجل رباعي كل حروفه أصول وليس من مادة الثلاثي في شيء وهذا تكلف، والمختار فيه ما قاله الكوفيون»(1).

بناءً على هذا يكون أصل (كفكف) ثلاثيا من (كفف) وزِيد فيه بالتضعيف فأصبح كفّف بثلاثة فاءات متوالية الأولى عين الفعل والثانية مزيدة والثالثة لام الفعل، لكنهم استثقلوا ذلك خاصة عند اتصال الفعل بالضمائر، فعدلت العربية الصيغة الثقيلة (كفّفت = كفْفَفْت) إلى صيغة خفيفة (كفكفت) بإبدال الفاء الثانية كافاً، «واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة؛ لصعوبة ذلك على

(1) إيجاز التعريف.. (ص: 86-87).

ألسنتهم؛ وأصعبُها حروف الحلق»[1]، وليس غريبا هذا الإجراء ولا من باب التعسف على اللغة؛ فـ «العرب تقلِّبُ حروفَ المُضاعَفِ إلى الياء»[2]، «وتقصّيتُ من القصّة ... أرادوا حرفاً أَخَفَّ عليهم منها وأَجْلَدَ ...، وكلُّ هذا التّضعيفُ فيه عربيٌّ كثيرٌ جيّد»[3]، فقد «خفّفُوا هذا النوع بإبدال أحد الأمثال ياء نحو: تَظَنَّيْت؛ لأنه من الظن»[4]، وإذا جاز إبدال حرف من جنس حروف كلمة بحرف من غير جنس حروف تلك الكلمة فإبداله بحرف من جنس حروفها أولى وأحرى، لأنه يحقق ما يحققه الأول وزيادة؛ فهو يحقق التكرار الحسن والإيقاع الجميل مضافا إلى الخفة المشتركة مع الأول، وذلك هو اختيار القرآن الكريم.

---

(1) المزهر للسيوطي، (1/ 192).

(2) مجاز القرآن (2/ 300)، وينظر أيضا: معاني القرآن (1/ 172).

(3) الكتاب (4/ 424)، وأدب الكتاب (ص: 487).

(4) إيجاز التعريف.. (ص: 87)، قال ابن فارس: «يقال: عَنَّنْت البعير: حبسته في العُنَّة، وربَّما استثقلوا اجتماعَ النُّونات فقلبوا الآخرة ياء». مقاييس اللغة (4/ 21).

ثانيا: (دمدم) في اللغة وفي القرآن الكريم

1. (دمدم) في اللغة:

تعرّض علماء اللغة للمعنى اللغوي لمادة (دمدم)، وحصروا دلالاتها في مجموعة من المعاني التي تفيدها.

ـ قال ابن فارس(ت395هـ): «(دم) الدال والميم أصل واحد يدلُّ على غِشْيان الشَّيء، من ناحية أن يُطلَى به... فأما الدّمدمة فالإهلاك»[1].

ـ وقال الزمخشري (ت538هـ): «دَمَمْتُ الثّوبَ إذا طلَيتهُ بالصِّبغ،... ومن المجاز: قولهم للسمين: كأنما دُمّ بالشحم دَمّاً»[2].

ـ وقال ابن منظور (ت711هـ): فأصل (دَمْدَمَ) دَمَمَ... ودَمَّ الأرضَ يَدُمُّها دَمّاً: سَوّاها. ودَمَّ يَدُمُّ دَمّاً: أسرع. ودَمْدَمَ: إذا عَذّب عذاباً تامّاً.

ودَمْدَمت الشيء إذا أَلزَقْته بالأرض وطَحْطَحته. ودَمَّهُم يَدُمُّهُم دَمّاً: طحنهم فأهلكهم، وكذلك دَمْدَمَهُم ودَمْدَمَ عليهم، أي: أهلكهم. ودمدم: أرجَفَ[3].

فيلحظ صرفيا أن أصل الفعل (دَمْدَمَ): دَمَمَ الثلاثي، كما يظهر في قولي ابن فارس وابن منظور مثلا، فوقعت الزيادة بالتضعيف[4]، لتنقل الكلمة إلى دمدم، ولابد لهذه الزيادة ما يقابلها من معنى.

---

(1) مقاييس اللغة (2/ 260).

(2) ينظر (دمم) في أساس البلاغة (1/ 284).

(3) لسان العرب (3/ 415ـ417).

(4) التعبير هنا عن هذه الزيادة بالتضعيف تارة وبالمضاعف تارة أخرى بمعنى واحد.

ويلحظ صوتيا تكرار الحروف الثنائية (الدال والميم مرتان) وما قد يحدثه ذلك من دلالات نفسية عميقة تصور الكلمةُ به الحدثَ وتشير إليه مفردة ومركبة.

ويلحظ دلاليا أن دمم تتوزّع عندهم على معاني: الغشيان والطلاء حقيقة أو مجازا.

بينما تتوزّع دمدم عندهم على معاني الإهلاك والعذاب التام، والإلزاق بالأرض والطحطاح والطّحن والإرجاف، وليس يخفى بعد هذا أن الزيادة قد دلت على معاني الشدة والقوة والمبالغة في ذلك.

هذا هو المعنى اللغوي لهذه الكلمة، فما معناها في الاستعمال القرآني؟

2. (دمدم) في القرآن الكريم:

وردت هذه المادة اللغوية في القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة الفعل الماضي المبني للمعلوم في قوله تعالى من سورة الشمس في قصة قوم صالح وعقرهم الناقة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾[1].

وسورة (الشمس) أو ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾[2] التي تحتوي كلمة (دمدم) مكية بالاتفاق. نزلت بعد سورة القدر، وقبل سورة البروج[3]، وعدت السادسة

(1) سورة الشمس، الآيات: 11ـ14.

(2) كذلك عنونها البخاري، وكذلك سُميت في بعض التفاسير، وهو المختار عند الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (30 / 365).

(3) البرهان للزركشي، (1/ 193)، والإتقان (1/ 99).

والعشرين في عدد نزول السور، وهي بعد سورة البلد، وقبل سورة الليل في الترتيب المصحفي، وعدد آياتها خمس عشرة آية في عدد جمهور الأمصار، وعدّها أهل مكّة ست عشرة آية[1].

وهذه السورة واحدة من ثلاث وأربعين سورة في كتابه العزيز ليس فيها ناسخ ولا منسوخ[2].

ومناسبة هذه السورة لسورة البلد قبلها؛ تتجلى في أنه لما ختم هذه بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أراد الفريقين في سورة الشمس على وجه التفصيل؛ فقوله في الشمس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ هُمْ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ في سورة البلد وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ في الشمس، هُمْ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾ في سورة البلد، إنّ «الله تعالى بيّن في السورة السابقة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، فذكر هنا أصحاب الميمنة بوصف الفلاح، وأصحاب المشأمة بوصف الخيبة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ فيستفاد مما هناك مع ما هنا أن أصحاب الميمنة مفلحون أي فائزون، لدخولهم الجنة. وأصحاب المشأمة خائبون أي خاسرون، لدخولهم النار، والله تعالى أعلم»[3].

فأجواء تنزيل مادة (دمدم) هي أجواء تهديد للمشركين الذين أشركوا وكذبوا برسالة محمد ﷺ، فكان تحذيرهم بأن يصيبهم ما أصاب قوم صالح بسبب عتوهم وإشراكهم وظلمهم لنبيهم عليه السلام.

---

(1) التحرير والتنوير (30 / 365).

(2) البرهان للزركشي، (2/ 33).

(3) البرهان في تناسب سور القرآن (ص: 208)، وجواهر البيان.. (ص: 98).

وبعض معاني (دَمْدَمَ) اللغوية هو ما استقرّ عليه المفسرون عندما فسّروا هذه المفردة ضمن سياق الآية التي وردت فيها، مُعضِّدِين تفاسيرَهم بأصول اللغة والشعر وأقوال السابقين وغير ذلك.

فعن ابن عباس(ت68هـ) قال: «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾: دمَّرَ عليهم ﴿رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ أي: بجُرمهم»[1].

ويقول الفراء(ت207هـ): «وقوله ﷻ: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ أرجف بهم»[2].

ويقول الزجاج(ت311هـ) ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: «أطبقَ عليهم العذابَ، يقال: دَمْدَمْتُ على الشيء إذا أطبقت عليه، وكذلك دَمَمْتُ عليه القَبْرَ وما أشْبَهَه، وكذلك ناقةٌ مدمومةٌ، أي: قد ألبَسَها الشّحم، فإذا كرّرت الإطباق قُلتَ: دَمْدَمتُ عليه»[3].

ويقول الراغب الأصفهاني(ت425هـ): «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلَكَهُم، وأزعجَهُم، وقيل: الدّمدمةُ حكايةُ صوت الهرة، ومنه: دمدمَ فلانٌ في كلامه، ودَمَمْت الثوبَ: طليتُه بصبغ ما، والدِّمام: ما يُطلى به، وبعيرٌ مدمومٌ بالشَّحم»[4].

ويقول عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ): «﴿فَدَمْدَمَ﴾ العذاب، والدمدمة تكرار الإطباق والتغشية»[5].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن (20 / 79).

(2) معاني القرآن للفراء، (3 / 269).

(3) معاني القرآن وإعرابه (5 / 255).

(4) مفردات الراغب، (دمدم).

(5) درج الدرر.. (4/ 1732).

ويقول الزمخشري(ت538هـ): «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾: فأطبق عليهم العذاب، وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة: إذا ألبسها الشحم»[1].

ويقول أبو الحسن النيسابوي(ت553هـ): «﴿فَدَمْدَمَ﴾: أهلك واستأصل، و»الدمدمة»: تحريك البناء حتى ينقلب»[2].

ويقول القرطبي (ت671هـ) ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ «أي أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر ... وحقيقة الدَّمْدَمَة تضعيف العذاب وترديده. ويُقال: دَمَّمْت على الشيء: أي أطبقت عليه، ودمم عليه القبرَ: أطبقَه، وناقة مدمومة: أُلْبَسها الشحم. فإذا كرّرت الإطباق قلت: دَمْدَمْت. والدمدمة: إهلاك باستئصال»[3].

ويلحظ أن هذه المادة لا يختلف معناها كثيرا عند المفسرين عما رأيناه من معناها عند اللغويين؛ فتتوزّع (دمم) على معاني: الغشيان والطلاء، وهو المعنى نفسه في قول الشاعر:

عَقــلاً وَرَقــماً تَظَــلُّ الطَــيرُ تَتبَعُــهُ   كَأَنَّــهُ مِــن دَمِ الأَجــوافِ مَــدمومُ

قال الأعلم الشنتمري شارحا البيت: «مدموم أي: مطليّ بالدّم. يقال: دَمَمْت الشيء، إذا طليته بالزعفران وغيره»[4].

---

(1) الكشاف (6/ 384).

(2) إيجاز البيان عن معاني القرآن (2/ 880).

(3) الجامع لأحكام القرآن (20/ 79).

(4) البيت لعلقمة الفحل وشرح الأعلم عليه، ديوانه (ص: 34).

بينما تتوزّع (دمدم) على معاني: التدمير والإرجاف والإطباق والإهلاك والإزعاج والاستئصال والتحريك.

وهو المعنى نفسه في قول الشاعر[1]:

تَتَابَع قِرْواشُ بنُ ليلى وعامرٌ وكانَ السُّرورُ يومَ ماتا مُدَمدما

والدمدمة في البيت بمعنى: الإهلاك والاستئصال.

وقال الأعشى[2]: [الرمل]

ساقَ مِن شِعري لهمُ قافيَةً وعلَيهِم صارَ شِعري دَمدَمهْ

ودمدمة بمعنى: تدميراً.

غير أن (دمدم) أخذت نصيبا وافرا من البيان والتوضيح، وهذا واضح من تعلق (دمدم) بنص الآية واختيارها هي بصيغتها المزيدة لتدل على زيادة معنى أراده الله تعالى.

فكان من بين ما أضافوه إلى معانيها وألحّوا عليه وأنعموا النظر فيه معنى التكرار والترديد كما نجده عند الزجاج والزمخشري والقرطبي، ولا يعقل هذا التكرار والترديد إلا من صوت حروف الكلمة وتكرارها، مما يأذن بتكرار المعنى وترديده.

على أن هذا المعنى كان قد ورد عند الفراء قبل أن يلتفت إليه هؤلاء؛ وهو ما نقله القرطبي عنه بقوله: «وقال الفرّاء: وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب، وترديده،

(1) شرح ديوان الحماسة للمعري، (1/ 621).

(2) جمهرة أشعار العرب (1/ 123).

ويقال: دمّمت على الشيء: أي أطبقت عليه، ودمّم عليه القبرَ: أطبقه. وناقة مدمومة: أَلْبَسها الشحم، فإذا كرّرت الإطباق قلت: دَمْدَمْت»[1]، ولم أجد في «معاني القرآن» ما نسبه إليه، على أن الفراء في شرحه لمعنى (صلصال) من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝﴾[2] قال: «ويقال: من صلصال منتن يريدون به: صلّ، فيقال: صلصال كما يقال: صرّ الباب عند الإغلاق، وصرصر. والعرب تردد اللام في التضعيف فيقال: كركرت الرجلَ يريدون: كررْته وكبكبته، يريدون: كببته ... وإنما فعلوا ذلك كراهية اجتماع ثلاثة أحرف من جنس واحد»[3]، فلا يبعد أن يكون ما نسب إليه قد صدر عنه في كتاب آخر لا أعرفه، أو مما خلت منه النسخ المعتمدة في التحقيق.

وهذا يعني أن وظيفة الزيادة في هذه الكلمة تتحدد شكليا في جمالية صوتية تخص الفصاحة، وسلامة النطق، وفي المقابل إبعاد توالي التكرار المكروه ذوقيا، ووظيفة تهمّ المعنى ودلالته؛ وهي تكرار الفعل وترديده.

وإذا كان هؤلاء المفسرون لا يبتعدون في شرحهم لهذه المادة عن معناها اللغوي إلا بما يراعيه السياق القرآني؛ وهو اختيار معنى الغِشْيان والطلاء، ومعنى التدمير والإرجاف والإطباق والإهلاك والإزعاج والاستئصال والتحريك، مع لحظ مراعاة اللغويين للمعنى القرآني كما مراعاة المفسرين للمعنى اللغوي، ولحظ زيادة معنى التكرار والترديد في (دمدم) عند المفسرين، فكيف تكون دلالة هذه المفردة بهذه المعاني الأخيرة في التركيب القرآني الذي وردت فيه، والسياق الدلالي الذي تغشّت به في ذلك التركيب؟

---

(1) الجامع لأحكام القرآن (20/ 79).

(2) سورة الرحمن، الآية: 12.

(3) معاني القرآن (3/ 114).

تحليل كلمة (دمدم) في سياقها القرآني:

لا تخفى العلاقة بين المعنيين في (دَمم) الأصل و (دمدم) الفرع على ما تبيّن سابقا في التفريق بين الصيغتين (فعلل) وأصله الثلاثي، كما هو جارٍ في لغة العرب، وقد فرّق ابن الزبير بين الفعل (تبع) واعتبره أصلا والفعل (اتّبع) بالتضعيف واعتبره فرعاً؛ لأنه يشتق عنه، ويزيد عليه، وأن تلك الزيادة منبئة بزيادة في المعنى، قال: «تبع واتّبع محصلان للمعنى على الوفاء، وتبع فعل وهو الأصل واتّبع فرع عنه، لأنه يزيد عليه وهو منبئ عن زيادة في معنى فعل بمقتضى التضعيف»[1].

وقد وضّح العكبري المنحى الاشتقاقي من الأصل الثلاثي إلى الرباعي والمعنى الدلالي الذي تطور عبر هذا النقل بربط المعنى في الرباعي بالمعنى الكامن في الأصل الثلاثي، فقال: «فكأنّه كان «دَمَّم»، أي: فَعَّلَ، ثمّ أبدل العين الثانية حرفاً مثل الفاء، ليفصل بين النظائر، فكأنه أراد أنه قطع دابرهم ودفنهم، فكان ستره محاسنهم بمنزلة الطّلاء الذي يستر ما تحته»[2].

فهذا التكرار بالتضعيف يدل على تكرار معنى العذاب وتأكيده وترديده كما رأينا ـ قبل قليل ـ عند الفراء والزمخشري والقرطبي فيكون الفعل (دَمْدَمَ) وحده قد استوفى المعنى حقه، ونقله في صورة بيّنة واضحة مختصرة؛ تختصر كل هذا الشرح الذي استخرجوه؛ فقد غشّاهم الله تعالى وأهلكهم بالعذاب الشديد، وسوّى عليهم الأرض، أو سوّى الإهلاك على هؤلاء الأشقياء، وأشقاهم الأول عاقر الناقة؛ الذين كذّبوا صالحاً في تحذيره لهم من العذاب إن هم عقروها، فكذّبوه فعقروها فاستحقوا من الله

---

(1) ملاك التأويل (1/ 190).

(2) شرح اللمع (2/ 680).

هذا العذاب الذي يصوّره الفعل بصيغته المزيدة المكررة[1]، التي تناسب تكرار الفعل عليهم.

لكن، ما بال الخطاب خطاب الجماعة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾[2]، مع أن العاقر واحد، عبر عنه في سورة الشمس بأنه أشقاهم، وعبّر عنه في سورة القمر بأنه صاحبهم في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾[3]، وأنهم استحقّوا العذاب جميعاً ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾، ووصفوا بالمذنبين جميعا ﴿بِذَنبِهِم﴾؟

لا جرم أنّ من شأن العرب أن تضيف فعل الواحد إلى الجماعة إذا كانت بينهما علاقة، وأنّ من عادتها أن «تضيف فعل الواحد إلى الجماعة إذا كانوا راضين بفعله»[4]، وهو الحاصل هنا؛ فلمّا كانوا راضين عن فعل صاحبهم استحقوا العقوبة جميعا، فأضاف فِعله إليهم، وليس الرِّضى هو دليل العلاقة فقط بل أيضا جامع الشِّقوة والصّحبة؛ فهو صاحبهم، وهم أشقياء وهو بينهم أكبرهم شقوة.

---

(1) الناتجة عن التضعيف وكره توالي المتشابه؛ فقد كانت إشارة في المقدمة إلى أنّ أصل (دمدم) دمّ = دمم وإذا زدنا في دمم بالتضعيف قلنا: دمّم بإثبات الشدة على وسطه، ثم إذا أسندنا الفعل المشدد إلى ضمير التكلم متحرك بارز مثلا قلنا: دَمْمَمْتُ، فكان الاستثقال بينا عند النطق، فأبدلت العرب الميم الوسطى دالا لطرح الثقل عليها، «ومن سنن العرب إبدالُ الحروف وإقامة بعضها مقام بعض». الصاحبي (ص: 333).

(2) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقرها الأشقى، وقد سماه المفسرون قُدار بن سالف؛ بضم القاف وتخفيف الدال، وأضيف إلى الكل، لأنهم رَضُوا بفعله. وقال الفراء: عقرها اثنان؛ والعرب تقول: هذان أفضل الناس، وهذان خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم؛ فلهذا لم يقل: أشقيَاها. الجامع لأحكام القرآن (20/ 79). وقد نسب الله تعالى العقر لواحد لا لجماعة في آية واحدة من جملة آيات القرآن الكريم التي تعرضت لقصة النبي صالح مع قومه هي آية القمر: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، أما باقي الآيات فكان الإسناد فيها إلى الجماعة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف، من الآية: 76]، و﴿فَعَقَرُوهَا﴾ في سورة هود، من الآية: 64، وسورة الشعراء، من الآية: 157، وسورة الشمس، من الآية: 14.

(3) سورة القمر، من الآية: 29.

(4) الإبانة في اللغة العربية (1/ 436).

بل إن هذا الشقي قد استجاب فعلا لأمرهم إياه بعقر الناقة، ورضي بفعل ذلك عن طواعية، وقد عبّرت دلالة الفعل المطاوع (انبعث/ انفعل) في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ عن ذلك الرضى، وتلك الاستجابة، فقد غاب الفاعل الحقيقي لفعل (بعث) واستُغني عنه، وكأنه ليس في حاجة إلى فاعل، وذلك لتركيز الاهتمام على هذه الاستجابة السريعة المفضية إلى الفعل الشنيع، ليصبح المعنى: «إذ بعثوا أشقاهم فانبعث وانتدب لذلك»[1].

ومعنى المطاوعة المضمّنة في (انبعث) هو نفسه المعنى في الفعل (فتعاطى) المطاوع أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[2]، نقل الشنقيطي عن أبي حيان قوله: فتعاطى هو مطاوع عاطا، وكأن الفعلة تدافعَها الناسُ وعاطاها بعضهُم بعضا، فتعاطاها قُدار وتناول العقر بيده، فقوله: ﴿فَعَقَرَ﴾ أي تعاطى عَقْرَ الناقة فعقرَها[3].

فكانت تلك الاستجابة الطوعية مدعاة ليستحقوا العقاب الشديد، وينالوا جزاءهم أجمعين، بسبب ذنبهم المتمثل في منعها شربها، وعقرها والإساءة لها.

ثم ما بال هذه القسوة والشدة في التدمير والإرجاف والإطباق والإهلاك والإزعاج والاستئصال والتحريك على صورة ما رأيناه سابقا، وأي قوم استحقوا أو يستحقون أن ينزل عليهم هذا العذاب المتكرر؟

إن المقصودين المباشرين بالخطاب هم المشركون الذي كذبوا رسول الله، كما كذّبت ثمود رسولهم طغيانا، وإذن جاءت مادة (دمدم) في تركيب المقارنة؛ بتشبيه حال

(1) التحرير والتنوير (30/ 373).

(2) سورة القمر، الآية: 29.

(3) أضواء البيان (7/ 476).

المشركين ومآلهم الذي ينتظرهم بها آل إليه مصير ثمود؛ لأنهم «لم يهتدوا إلى أن ما حلّ بثمود من الاستئصال كان لأجل تكذيبهم رسول الله إليهم، فنبّههم الله بهذا ليتدبروا»[1]، فكان من الطبيعي أن تتموضع هذه المادة، في تركيب المشبه به، وذلك حسب مسلك العرب في صور التشبيه؛ لأن المعنى فيه أقوى من نظيره في الطرف الأول المراد بيانه بالتخويف والتهديد المناسب لحال المشركين الذين كذّبوا محمدا ﷺ، والله تعالى أعلم بمراد كلامه.

ولتتبيّن هذه الشدّة في العقاب المنبعثة من صيغة (دمدم) اعتمادا على المعنيَيْن اللغوي والسياقي، نورد صورا أخرى لعقابهم في مواضع أخرى من القرآن الكريم تصف مآلهم الذي آلوا إليه؛ ففي الآيات القرآنية التي عرضَت قصة قوم صالح في شأن عقرهم للناقة؛ قال تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٥﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[2].

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[3].

(1) التحرير والتنوير (30/ 372).

(2) سورة الأعراف، الآيات: 75- 76-77.

(3) سورة هود، الآيات: 63-64-65-66 .

﴿مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَاتِ بِءَايَةٍ اِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلاَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ﴾[1].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمىٰ عَلَى ٱلْهُدىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ اِ۬لْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2].

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمُۥٓ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَٰحِبَهُمْ فَتَعَاطىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِے وَنُذُرِۦ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ اِ۬لْمُحْتَظِرِ﴾[3].

﴿إِذِ اِنۢبَعَثَ أَشْقىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوّٰىهَا ﴿١٤﴾ فَلاَ يَخَافُ عُقْبٰهَا﴾[4].

نقتطع من كل آية من هذه الآيات قوله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

---

(1) سورة الشعراء، الآيات: 154ـ155ـ156ـ157ـ158.

(2) سورة فصلت، الآية: 16.

(3) سورة القمر، الآيات: 27ـ28ـ29ـ30ـ31 .

(4) سورة الشمس، الآيات: 12ـ13ـ14ـ15.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

فنجد قاسما مشتركا بين هذه الآيات يمكّن من توضيح معاني الشدّة في العقاب وفي سرعته انطلاقا من تحديد نوع العذاب وكيفيته، ومآل المشركين بسببه:

- أخذت الظالمين ﴿الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٧﴾﴾. ومعنى الرجفة: الاضطراب الشديد[1].

- أخذتهم ﴿الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. ومعنى الصيحة: الصوت المزعج المفزع المهلك[2].

- أصبحوا ﴿نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾. ومعناه: أن الندامة وهي التحسّر قد حلت بهم قبل العذاب.

- ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾. والصاعقة: الصوت الشديد «تطلق أيضا على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معا، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم، رجفت بهم الأرض من تحتهم، أي تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميرا واضحا»[3].

(1) مفردات الراغب، (رجف).

(2) مفردات الراغب، (صاح).

(3) مفردات الراغب، (صعق)، وأضواء البيان (7/ 82).

وصَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ: من النعت بالمصدر؛ لأن الهون مصدر بمعنى الهوان، وهو موجه بأن يكون على حذف مضاف، أي العذاب ذي الهون، أو على سبيل المبالغة، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه، صار كأنه نفس الهوان[1].

ـ أرسل الله تعالى عليهم ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾. ومعنى الهَشِيم المُحْتَظِر: المنكسر الرخو كالنبات، وهشَمَ عظمه: شَجّه[2]. قال الزمخشري: «والهشيم؛ الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة، وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم»[3].

ولاشكّ أن معنى (أخذ) المتكرر هنا يراد به العقوبة والقهر، لا أصل وضعها الدال على حَوْز الشيء وجمعه وتحصيله.

فـ(الرجفة) و(الصيحة) و(العذاب) و(الصاعقة) و(دمدم) تمثل نوع العذاب وطبيعته. و﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٧﴾ و﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ و﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ و﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ تمثل تصوير تأثير العذاب وحسيته ومآلهم الذي آلوا إليه.

فالرجفة والصيحة ظهر تأثيرهما في: تحولهم السريع من حال إلى أخرى غير التي كانت؛ والمعبّر عن ذلك فعل: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾، وحال جثثهم الجاثمة التي آلت إليها. وفي: منقلبهم من زمن حاضر إلى زمن ماض: ﴿فَكَانُوا۟﴾، وصورة المشبه به ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾.

(1) أضواء البيان (7/ 83).

(2) مفردات الراغب، (هشم).

(3) الكشاف (5/ 661).

ومن هنا يبدو أنّ التصوير بالفعل (دمدم) قد اكتفى بنفسه لدلالته على الحدث والتجدد والاستمرار، ثم لدلالة تكرار حروفه على تكرار ذلك الحدث وتجدده واستمراره؛ وهو حدث العقاب الشديد السريع.

وكان هذا العقاب المستحق ينزل بهم قويا مزلزلا سريعا يعانون قسوته، ذلك ما عبر عنه حرف الجر المستعلي ﴿عَلَيْهِم﴾، فقد نقل البقاعي عن الرازي قوله: «ودل بأداة الاستعلاء على شدته - يعني العذاب - وإحاطته فقال: ﴿عَلَيْهِم﴾»[1]، كما في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2]، أي: على كاهلها وعاتقها، فيشعر بالكلفة والمشقة، والعرب تقول: لي مال وعلي دين، وبينهما فرق.

كما دلّ بهذا الاستعلاء على الشدّة أيضا تقديمه للحرف (على) على الفاعل اسم الجلالة (ربهم) لكي لا يفصل بينهم وبين العذاب الذي يستحقونه، ويجعله ملازما لهم، لا يغادر كواهلهم وأجسامهم، ومن المعلوم أن فعل (دمدم) يتعدى ولا يتعدى، فكان من الممكن أن يقال: دمدمهم، لكن السياق يأبى ذلك ويمنعه، فأراد أن يعدّيه بـ (على) المفيدة للاستعلاء لأجل تلك المعاني التي أسلفناها، والله أعلم.

ودلّ على شدة العذاب المنبئ عن شدة الغضب «صفةُ الإحسان التي كفروها لأنه لا أشد غضباً ممن كفر إحسانه، فقال: ﴿رَبُّهُم﴾ أي: الذي أحسن إليهم»[3].

وقد أتى ما استحقوه من العذاب سريعاً؛ يدل على ذلك قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ فعندما عقروا الناقة وعتَوْا استعجلوا العذاب

(1) نظم الدرر (22/ 82).

(2) سورة البقرة، من الآية: 285.

(3) نظم الدرر (22/ 82-83).

فسألوا صالحا أَنْ ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ فما كان إلا أن أمهلهم ثلاثة أيام: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾، فهذه نصوص صريحة في أن العذاب الذي لحق بهم كان قويا مدمرا كما كان سريعا.

وقد عبرت عن السرعة أيضا جملة من الفاءات العاطفة الدالة على الترتيب والتعقيب، ولحظها في نصوص الآيات باد لا يحتاج إلى تفسير.

نقول إذن، قد استجابت دلالات الكلمات المجاورة لمادة (دمدم) ونظمُها لمعنى الشدة والقوة المستتر وراء تكرار الحروف وترديدها؛ دلالات كلمات: (انبعث) (عليهم) (ربهم) (بذنبهم)...

ودلالات معاني (الرجفة) و(الصيحة) و(العذاب) و(الصاعقة) و(الهشيم المحتظر) في آيات أخرى تصور العذاب في القصة بطرق عرض أخرى تدل على إعجاز لغوي مبهر، والله تعالى أعلم بمراد كلامه.

مصادر البحث ومراجعه:

- الإبانة في اللغة العربية لسلمَة بن مسلم العَوْتَبي الصُّحاري (توفي آواخر النصف الأخير من ق 5هـ)، تحقيق: جماعة من الأساتذة، ط.1، 1420هـ- 1999م.

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي(ت911هـ)، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ- 2006م.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي(ت1393هـ)، مكتبة المعارف- الرباط، 1421هـ- 2000م.

- أساس البلاغة للزمخشري(ت538هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، مطبعة دار الكتب- مصر، ط.2، 1972م.

- إيجاز البيان عن معاني القرآن لمحمود بن أبي الحسن النيسابوري(توفي بعد 553هـ)، تحقيق: حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط.1، 1995م.

- إيجاز التعريف في علم التصريف لابن مالك(ت672هـ)، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، ط.1، 1430هـ- 2009م.

- البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي(708هـ)، تحقيق: سعيد بن جمعة الفلاّح، دار ابن الجوزي- المملكة العربية السعودية، ط.2، محرم 1428هـ.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي(ت794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط.2.

- الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق لعائشة عبدالرحمن، دار المعارف بمصر، 1971م.

ـ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.

ـ تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت310هـ)، حقّقه وخرج أحاديثه: محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر، 1969م.

ـ الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(ت671هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان، ط.2، 1952م.

ـ جواهر البيان في تناسب سور القرآن لعبدالله الغماري الحسني(توفي بعد 1385هـ)، مكتبة القاهرة، ط.3، 1427هـ ـ 2006م.

ـ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي(توفي في أوائل ق4هـ)، تحقيق: محمد علي الهاشمي، دار القلم ـ دمشق، ط.3، 1419هـ ـ 1999م.

ـ الخصائص لابن جني(ت392هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.2، 1371هـ ـ 1952م.

ـ دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآيِ والسُّوَر لعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ)، تحقيق: وليد بن أحمد بن صالح الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة، مانشستر ـ بريطانيا، ط.1، 1429هـ ـ 2008م.

ـ شرح ديوان علقمة بن عبَدة الفحل(ت625م وقيل غيرها) للأعلم الشنتمري(ت426هـ)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: حنا نصر الحسني، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط.1، 1114هـ ـ 1993م.

ـ شرح ديوان حماسة أبي تمام(ت231هـ) المنسوب لأبي العلاء المعري(ت449هـ)، تحقيق: حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، 1411هـ ـ 1991م.

- شرح اللّمع للعكبري(ت 456هـ)، تحقيق: فائز فارس، ط.1، 1405هـ - 1984م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.

- الصاحبي لابن فارس(ت395هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة ومطبعة دار إحياء الكتب العربية، (د . ت).

- طرق العرض في القرآن، الأهداف والخصائص الأسلوبية لعيسى با طاهر، الرسالة 178، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية الثانية والعشرون، (1422/ 1423هـ - 2001/ 2002م).

- الفعل زمانه وأبنيته لإبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط.2، 1400هـ - 1980م.

- الكتاب لسيبويه(ت180هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت، ط.1، (د.ت).

- الكشاف للزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان - الرياض، ط.1، 1418هـ - 1998م.

- لسان العرب لابن منظور(ت711هـ)، دار الحديث - القاهرة، 1423هـ - 2003م.

- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية لأبي إسحق الشاطبي(ت790هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط.1، 1428هـ - 2007م).

- نظرات في أبنية القرآن الكريم لمحمد عبد الخالق عضيمة، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - المملكة العربية السعودية، ع:8، 1398هـ 1978م.

ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة(ت211هـ)، تحقيق: فؤاد سيزكين، الناشر: محمد سامي أمين الخانجي، ط.1، 1381هـ ـ 1962م.

ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي(ت911هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط.1، 1998م.

ـ مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني(ت425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم ـ دمشق / بيروت، ط.3، 1463هـ ـ 2002م.

ـ معاني القرآن للفراء(ت207هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط.3، 1422هـ ـ 2001م، أو مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط.3، 1422هـ – 2002م.

ـ معاني القرآن وإعرابه للزجاج(ت311هـ)، تحقيق: عبد الجليل شلبي، دار الحديث القاهرة، 1424هـ ـ 2004م.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي(ت885هـ)، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

ـ معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس(ت 395هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط.2، 1389هـ ـ 1969م.

ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي(ت708هـ)، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1428هـ ـ 2007م.